هل الفضيلة غريبةٌ عن الإنسان؟

فلسفة الأخلاق (1)

لماذا نشعر بالراحة حين ننتصر للحقّ، وإن خسرنا مصلحةً قريبة؟ ولماذا يؤنّبنا ضميرنا حين نظلم إنسانًا، حتى لو لم يعرف أحدٌ بما فعلنا؟ ولماذا نجد في الصدق والوفاء والرحمة جمالًا يتجاوز منافع الحياة العاجلة؟

أهذه المشاعر مجرّد عادات اكتسبناها من المجتمع، أم أنّ وراءها حقيقةً تتصل بتكوين الإنسان نفسه؟

تفتح هذه الأسئلة بابًا مهمًّا في فلسفة الأخلاق: هل يميل الإنسان بفطرته إلى الفضيلة، أم أنّ الأخلاق تكاليف تُفرض على طبيعته؟ والإجابة تؤثّر في فهمنا للتربية والعبادة ومجاهدة النفس والكمال الإنساني.

الأخلاق: حين تصبح الفضيلة صفةً راسخة

لا تقتصر الأخلاق على معرفة الصواب والخطأ، أو القيام بعمل حسن أحيانًا، بل تتصل بالصفات الراسخة في النفس التي تجعل صدور الأفعال عنها سهلًا ومألوفًا. فالصدق والعدل والتواضع والوفاء فضائل، بينما الكذب والظلم والكبر والخيانة رذائل.

لكنّ السؤال الأعمق هو: هل الفضيلة والرذيلة متساويتان في علاقتهما بحقيقة الإنسان، أم أنّ إحداهما أقرب إلى فطرته وكماله، والأخرى تُبعده عنه؟

العالم قائم على الحكمة، والإنسان ليس استثناءً

تنطلق الرؤية القرآنية من أنّ الخلق ليس عبثًا، بل يجري وفق حكمة ونظام. قال تعالى:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السجدة: 7)،وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا

الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (التين: 4).

فالإنسان مهيّأ للمعرفة والاختيار والنموّ الأخلاقي، لكنّ الاستعداد للكمال لا يعني بلوغه تلقائيًّا؛ إذ يحتاج إلى التربية والممارسة.

ومن هنا تتّصل الأخلاق بالتوحيد؛ فالإيمان باﷲ ليس اعتقادًا ذهنيًّا فحسب، بل رؤية تجعل الصدق والعدل والرحمة والإحسان معاني متصلة بالعبودية والسير نحو رضاه تعالى.

الفطرة: البوصلة التي لا تُغني عن السير

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: 30).

تشير الفطرة إلى أصلٍ في تكوين الإنسان يجعله قابلًا للتوجّه نحو اﷲ وإدراك معاني الحقّ والخير. وليست معلومات تفصيلية يولد الإنسان عارفًا بها، ولا تعني أنّ الناس متساوون في أخلاقهم، بل استعدادًا أصيلًا ينمو بالتربية والعمل، وقد تحجبه الشهوات والعادات والبيئة الفاسدة.

وعليه، فإنّ التربية الأخلاقية ليست صناعة إنسان غريب عن حقيقته، بل إيقاظٌ لاستعدادات الخير وتنميةٌ لها.

ويؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: 8-7). فالإنسان قادر على التمييز بين الطريقين، ومسؤول عن اختياره، وإن لم يكن مضمونًا أن يختار الخير دائمًا.

وتتجلّى أهمية التربية في بناء الفضيلة في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام، إذ يقول: " إِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ، مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ "

فالقلب في بدايات تكوّنه يمتلك قابليةً عميقة للتأثّر بما يُغرس فيه، ومن هنا تتجلّى مسؤولية التربية في رعاية استعدادات الخير، وتوجيه الإنسان نحو الفضيلة قبل أن تستحكم فيه العادات

المنحرفة. فالفطرة تمنح الإنسان قابلية الخير، والتربية ترعى هذه القابلية، والاختيار يحوّلها إلى سلوك، والممارسة تجعلها خُلُقًا راسخًا.

لماذا تبدو الفضيلة أحيانًا شاقّة؟

إذا كانت الفضيلة منسجمةً مع الفطرة، فلماذا نحتاج إلى مجاهدة النفس لنكون صادقين وعادلين؟ ولماذا تبدو الشهوة العاجلة جذّابة، بينما يتطلّب ضبطها صبرًا؟

ينشأ الإشكال من الخلط بين الرغبة اللحظية وما يحقّق كمال الإنسان. فقد يرغب في الانتقام عند الغضب، لكنه يدرك أنّ العفو أجمل، وقد يستلذّ بمكسب غير مشروع، ثم يكتشف أنّه دفع ثمنًا أخلاقيًّا باهظًا.

فالإنسان تتجاذبه رغباته ومصالحه القريبة، من جهة، وعقله وضميره وتطلّعه إلى الكمال، من جهة أخرى. لذلك لا يصحّ الحكم على فطرته من خلال كلّ رغبة عابرة.

ومجاهدة النفس ليست دليلًا على غربة الفضيلة، بل قد تكون محاولةً لتجاوز العادات والشهوات واستعادة الاختيار الواعي. وكما يحتاج الجسد إلى التدريب ليقوى، تحتاج النفس إلى الممارسة حتى تصبح الفضيلة فيها ملكةً راسخة.

من التكليف إلى التشريف

إذا نظر الإنسان إلى الأخلاق بوصفها أوامر ثقيلة لا صلة لها بحقيقته، فقد يرى التديّن قيودًا تحرمه الحرية واللذّة. أمّا إذا أدرك أنّ الفضيلة تحرّره من عبودية الهوى والجشع والحسد، فسيراها طريقًا إلى الحرية الداخلية.

ومن هنا نفهم الطاعة بوصفها تشريفًا؛ فالتكليف الإلهي يفتح أمام الإنسان طريقًا للنموّ والقرب من الله واكتساب الصفات الكريمة. وقد عبّر السيد ابن طاووس عن هذا المعنى حين دعا إلى النظر إلى يوم التكليف بوصفه يوم تشريف وسعادة، لا مجرّد بداية للأعباء.

ولا يعني ذلك أنّ التزكية تخلو من المشقّة، بل إنّ صعوبة الطريق لا تنفي قيمة غايته، وقد يجد

الإنسان في تجاوز أنانيته لذّةً أعمق من اللذّة التي ظنّ أنّه فقدها.

كيف ننمّي نزعتنا نحو الفضيلة؟

خطوات عملية للشباب

إذا كانت الفضيلة استعدادًا فطريًّا يحتاج إلى الرعاية، فإنّ تنميتها تبدأ بأعمال صغيرة تتكرّر حتى تصبح جزءًا من شخصيّتنا:

1. حاسب نفسك كلّ يوم. اسأل قبل النوم: هل صدقت؟ هل ظلمت أحدًا؟ هل حفظت كرامة من اختلفت معه؟ واجعل المحاسبة وسيلةً للإصلاح لا لليأس.

2. درّب نفسك على فضيلة واحدة. اختر خُلُقًا كلّ أسبوع، كالصدق أو الصبر، وحوّله إلى سلوك عمليّ واضح.

3. توقّف قبل الاستجابة للانفعال. عند الغضب أو الرغبة في الخطأ، اسأل نفسك: هل ينسجم قراري مع قيمي، أم أنّني أتبع رغبةً عابرة؟

4. اجعل للعبادة أثرًا في أخلاقك. تأمّل أثر الصلاة في أمانتك ورحمتك وصبرك؛ فثمرة العبادة تظهر في علاقتك باﷲ وتعاملاتك مع الناس.

5. اختر صحبةً تعينك على الخير. اقترب ممن يشجّعونك على الصدق واحترام الآخرين، وابتعد عن البيئات التي تطبّع الغيبة والسخرية والخيانة.

6. أصلح الخطأ بدل الاكتفاء بالندم. اعتذر ممن أسأت إليه، وردّ الحقوق، وابحث عن أسباب السلوك السيّئ لتغييره.

7. راجع تقدّمك الأخلاقي. لا تقارن نفسك بالآخرين، بل اسأل: هل أصبحت اليوم أفضل من الأمس؟ فقد يكون

تقدّمك في غضبٍ ضبطته، أو حقٍّ أعدته، أو كلمةٍ جارحة امتنعت عنها.

وهكذا تنتقل الفضيلة من فكرة نؤمن بها إلى خُلُق نمارسه، ومن رغبة عابرة في الإصلاح إلى ملكة راسخة، بالوعي والإرادة والصبر.

الخاتمة: لا تُطفئ النور الذي أودعه الله فيك

لعلّ أصعب انتصارات الإنسان ليس انتصاره على الآخرين، بل انتصاره على ما يُبعده عن أجمل ما فيه؛ أن يختار الصدق حين يغريه الكذب، والعدل حين تتيح له المصلحة الظلم، والعفو حين تدعوه نفسه إلى الانتقام، وأن يفعل الخير حين لا يراه أحد.

في أعماق الإنسان استعدادٌ للخير، يحتاج إلى قلبٍ يصغي إليه، وعقلٍ يهديه، وإرادةٍ تثبّته. وقد تحجب الشهوات هذا النور، لكنّ الحجاب لا يعني انطفاءه، والتعثّر لا يعني إغلاق طريق العودة.

إنّ تهذيب النفس ليس حربًا على حقيقتنا، بل سعيٌ لاكتشاف أفضل ما أودعه الله فينا، وتحرير الإنسان مما يستعبده ويحرمُه كرامته. وكلّما اخترنا الفضيلة بوعي وإخلاص، اقتربنا من بناء إنسانٍ أصفى قلبًا، وأصدق موقفًا، وأقرب إلى الله تعالى.

فلا تسأل نفسك فقط: كم عرفتُ من الأخلاق؟ بل اسألها: كم غيّرتُ من نفسي؟ وكم انتصرتُ للحقّ حين كان الانحراف أسهل، وللخير حين كانت الأنانية أقرب؟

فهناك، في اللحظات التي لا يراك فيها أحد، تتشكّل حقيقتك الأخلاقية، ويُكتب تاريخ الإنسان الذي تختار أن تكونه.

فالفطرة بذرة، والفضيلة ثمرة، والحياة فرصةٌ كي نرعى تلك البذرة حتى تُثمر إنسانًا يليق بكرامة الروح التي أودعها الله فيه.